دور علم النفس في العملية التربوية التعليمية

بقلم : د. حسن عامر

كان الاعتقاد السائد قديماً أن المعلم يكفيه إلمامه بمادته حتى يكون معلماً قديراً . فإذا أراد أحد الناس أن يعلم الحساب فحسبه أن يكون ملماً بأصول علم الحساب . ولكن فعل التعليم كما قال "جون آدمز" ينصب مفعولين ، فإذا قلنا "أعلم محمداً الحساب" ففعل التعليم هنا ينصب محمداً وينصب الحساب ، فلأجل أن ينجح المعلم في تعليم محمد الحساب يجب أن يكون ملماً بكل من الحساب ومحمد . وفوق هذا ينبغي أن يكون واقفا على طريقة إيصال الحساب إلى ذهن محمد ، أي أن المدرس يجب أن يلمّ بثلاثة أشياء هي :

أولا: مادة الاختصاص أو المادة التي يدرسها .

ثانيا: نفسية التلميذ وعقليته .

ثالثا: طريقة إيصال هذه المادة إلى هذا التلميذ .

أما الشيء الأول وهو مادة الاختصاص ، فيتعلمها المعلم عادة قبل بدئه في التهيؤ الفني الحقيقي لمهنة التدريس . وأما الشيء الثاني فيتناول دراسة نفسية التلميذ . وتتبين هنا أهمية علم النفس للمدرس . وأما الشيء الثالث فيدخل تحته فن التربية وطرق التدريس ، وطبيعي أنني إذا أردت أن أعلم شخصا ما أي علم من العلوم فلا بد أيضا من معرفة شيء عن نفسية هذا الشخص وعقليته وقدراته واستعداداته . ولا بد أيضاً من معرفة الطريق الذي يسلكه عقله في عملية التعليم . مثل المعلم مثل الطبيب الذي يذهب لمعالجة شخص من مرض أصابه ، فلا يكفي الطبيب معرفة أعراض المرض والدواء اللازم ، بل لا بد له أن يكون واقفاً على تركيب أعضاء الجسم ووظائفها وعلاقتها بعضها ببعض ، ولا بد له أن

يقف على حالة جسم هذا المريض بنوع خاص ، حتى يمكنه أن يسير في علاجه على ضوء المعرفة الصحيحة ، وإلا كان علاجه تخبطاً قد يؤدي إلى النجاح أو إلى عكسه ، كذلك المدرس إذا أراد أن يصلح خُلق تلميذ أو ينمي مقدرته في ناحية خاصة ، فلا بد له من فهم عقلية التلميذ وطريقة كسبها للمعرفة والمهارة، وأن يكون على علم بمستواها الطبيعي والمكتسب ، وأن يعلم ما يسبب لها التعب أو الراحة وما يزيد نشاطها وانتاجها ، إلى غير ذلك مما يسهل على المدرس مهنته إلى حد كبير (Gutes ١٩٤٢) .

ويتمكن علم النفس من إيقاف المدرس على خواص العقل العادي في مراحل النمو المختلفة من الطفولة إلى الرجولة . وتمكنه من معرفة هذه الخواص من تهيئة الجو والظروف المحيطين بالطفل تهيئة تسمح بنمو قوى الطفل واستعداداته بصورة تفيده وتفيد المجتمع.

ولعل أهم ما يستفيده المدرس من علم النفس هو معرفة الفروق بين الأفراد ، فالمدرس القديم كان ينظر إلى تلاميذه على أنهم متشابهون من حيث القدرة العقلية ، ويتوقع أن يكونوا متساوين في تحصيلهم وانتاجهم ، وهذا خطأ فاحش ، فقد كشف لنا علم النفس أنه لا توجد قط مجموعة من الناس يمكن أن نسميها متجانسة بكل معنى الكلمة ، فكل فرد يختلف عن غيره اختلافات بيّنة واضحة ، وعلى ذلك وجب على المدرس الحديث ألا ينسى في أثناء أدائه وظيفته هذه الفروق العقلية والخلقية . وبعبارة أخرى وجب عليه أن يذكر أن التلاميذ يختلفون بعضهم عن بعض من حيث الذكاء فبينهم الذكي السريع الفهم بطبيعته ، وبينهم الغبي البطيء الفهم ، كما أن عليه أن يعلم أنهم يختلفون أيضاً من حيث استعداداتهم في المواد الدراسية المختلفة . فهناك من التلاميذ من يملك استعدادا جيدا للغات بينما يكون استعدادهم للعلوم الهندسية ضعيفاً ، وهناك (Barkley 1990) الذي يعتقد بأن من التلاميذ من يعاني تخلفًا أو إعاقة قرائيّة ، ومجال التخلف والإعاقة واسع ، يحتوي على عدة

مجموعات من حيث الأسباب والأشكال والمظاهر ، ومن حيث المدة والمستوى الإعاقي والتأثيري وهناك أيضاً الخلل المسمى(بالأوتيزم)فهو أحد الاضطرابات النفسية الصعبة حيث يمتاز التلميذ المصاب به بانقطاعه عن البيئة وبفقدان القدرة على إنشاء علاقات شخصية مع الناس والصعوبة في تنفيذ المهام (Apa ١٩٩٤). بالإضافة إلى الطلاب (الهيبرأكتيف) Hyper active الذين يمتازون بالحركة الزائدة وعدم القدرة على الجلوس لفترة قصيرة ويمتازون أيضاً بعدم التركيز والانتباه ويسببون الإزعاج للمدرس بصورة متواصلة (١٩٧٦ Knights & bukker) .

وعلى المدرس ألا ينسى الفروق بين التلاميذ من حيث الأمزجة والطبائع والميول وأن يعامل كل تلميذ بما يتفق مع طبائعه وميوله .

ولم يقف علم النفس عند كشف هذه الفروق ، بل توصل إلى كشف أصولها ، فبعض هذه الفروق بين الأفراد يرجع إلى الوراثة ، فكما أن الناس يرثون عن آبائهم بعض الخصائص كطول الأنف أو طول القامة أو لون العينين ، فإنهم يرثون كذلك الفروق في درجة الذكاء وفي الأمزجة وفي الطباع .

وقد توصل علم النفس إلى حل مشكلة تعليمية كبرى وهي مشكلة الشواذ ، والشواذ هم المتطرفون الذين يختلفون اختلافا بينا عن العادي أو المتوسط ، والشواذ إما الموهوبون وهم المتصفون بفرط الذكاء وإما ضعاف العقول وهم المتصفون بنقص الذكاء وإما الشواذ في الخلق . ولا يخلو كل فصل عادة من واحد أو أكثر من الشواذ أو القريبين منهم وكثير منهم يعاني من وجود مشكلات تعليمية ، لا يسهل على المعلم تشخيصها ومواجهتها إلا إذا درسها وعرف أعراضها على ضوء اكتشافات علم النفس .

ولكن ما سبق أن علمناه من وجوب معاملة كل فرد معاملة خاصة به ، لا ينسينا أنّ من واجب الفرد أن يعمل لمصلحة المجتمع وأن يتعامل مع أعضائه فالشخص في نظر علم النفس فرد يختلف عن بقية الأفراد ، وهو فوق ذلك

فرد ضمن مجموعته .

ويوقفنا علم النفس كما قلنا على سلوك الفرد كفرد وعلى سلوكه كعضو في مجموعة . وتتبين أهمية هذين الاعتبارين بوضوح المدرس الذي يرمي إلى تربية فردية الإنسان وشخصيته ليكون عضوا صالحاً في المجتمع .

كذلك على المدرس أن يدرك أن واجبه هو تهيئة الجو الدراسي لإنماء الصفات الخلقية والعقلية في الفرد إلى أعلى درجة تتفق مع استعداداته وقدراته ، ولكن كيف تنمو هذه الصفات؟ وبعبارة أخرى كيف يتعلم الفرد ؟ وهل يتوقف تعلمه من حيث سرعته أو مدى استعداداته الفطرية ، أو على مجهود المدرس؟ وما هي الشروط اللازم توفرها لضمان السرعة والإتقان في التعليم؟ ثم هل تعلم مادة من المواد يساعد المرء على تعلم مادة أخرى؟ فهل تعلم التاريخ يساعد المرء على تعلم الجغرافيا مثلا؟ ولقد مكنتنا دراسة علم النفس من معرفة أثر تدريس مادة ما ومدى الانتفاع بهذا الأثر في ميادين أخرى ، سواء كانت في المدرسة أم في الحياة . ونعلم الآن الشروط التي يلزم توافرها حتى يتمّ الانتفاع بتعلم ناحية ما في ناحية أخرى. وبهذا يمكن الإقتصاد في الجهد مع تحقيق أكبر وأوسع فائدة عملية (qesner١٩٨٣) .

زيادة على ما تقدم فإن القائمين بأمر التعليم يلزمهم معرفة أحسن الطرق لتوزيع فترات العمل وفترات الراحة وطول كل فترة ، فإن كانت فترات العمل المدرسي طويلة جداً نشأ الملل والتعب ، وإذا كانت قصيرة جداً لم يستفد التلميذ الفائدة المرجوة . كذلك فترات الراحة لا يجوز أن تكون قصيرة فلا تزيل التعب ، ولا تؤثر في نشاط وتحمس المرء للعمل . فلكل من فترة الراحة وفترة العمل طول خاص يمكن أن يكشفه لنا علم النفس ، ويكون له بلا شك أثر كبير في تنظيم العمل المدرسي .

ويتدخل علم النفس فوق ما تقدم، في كل مادة تعليمية ويحللها إلى عناصرها الأولية من حيث القدرات والعمليات العقلية التي تتدخل فيها . وقد تناول بالتحليل القراءة والكتابة والحساب واللغات ، كما تناول بالبحث فنون الرسم والنقش والزخرفة والمواد

العملية، وحلل جزءاً كبيراً منها إلى عناصره الأولية عقلية كانت أو يدوية ، ومن نتائج هذه البحوث أن صار باستطاعة المدرس أن يعرف ما يناسب التلميذ بحسب استعداداته ، وما يناسب التلميذ الواحد في سن دون الأخرى ، أو في مرحلة تعليمية دون الأخرى ، وفي استطاعته كذلك أن يكون أكثر فهماً لأحسن الطرق لتعليم المواد الدراسية المختلفة .

نستخلص من كل ما تقدم أن علم النفس هو المرشد الأكبر ، أو يكاد يكون هو المرشد الأكبر للمدرس في عمله ، سواء في ذلك عمله في الفصل من تعلم مهارات عقلية وعملية مختلفة ، أو خارج الفصل من تربية اجتماعية وخلقية ، وعلم النفس يساعد المدرس في محاولاته حل مشاكل التعليم ومشكلات النظام ، كذلك يساعد علم النفس القائمين بتوجيه السياسة التعليمية العامة في عملية تنظيم مراحل التعليم وفي تحديد سن بدء التعليم ومرحلة التعليم المشترك للجميع ، ثم مراحل التنويع الذي يستلزمه ظهور التنوع في استعدادات التلاميذ وميولهم إلى غير ذلك من مشكلات .

على أنه لا يجوز أن نتصور أن باستطاعة المدرس مواجهة كل مشكلة صغيرة أو كبيرة وحلها بسرعة ، فالذي يحدث هو أن يعمل المدرس الناشئ على فهم علم النفس فهماً يمكنه من اتخاذ موقف متنور نحو التلاميذ ، وهذا لا يأتي إلا عن طريق هضم علم النفس أو الإلمام به ، وذلك لتعدد العوامل التي تدخل في كل سلوك ، ولمرونة هذه العوامل وقابليتها للتأثر والتغيير ، ولكن دراسة المعلم لهذه العوامل واحتمالات تأثيراتها دراسة جيدة وافية تجعل منه مربياً أقرب إلى الفنان في عمله مع تلاميذه منه إلى أي شيء آخر على أننا يجب أن نتذكر أيضاً أن علم النفس علم حديث ، وقد كشف لنا كثيراً من الحقائق ، غير أن كثيراً من الأمور لا زالت غامضة ، وما زالت رهن البحث . ومع حداثة العلم فإنه أثبت في السنوات الثلاثين الأخيرة مقدرة كبيرة على الأخذ بيد المدرس ، وفي حل كثير من المشكلات التعليمية العامة .

References

1. American Psychological Association. (1994). *Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorder*, Dsm - IV .

2. Barkley , R.A. (1990). Attention-deficit hyperactivity disorder: *Ahandbook for Diagnosis and Treatment* . New york: 64:1 d ford press .

3. Eisner, E.w (1983). The art and craft of teaching . *Educational leadership* 40: 4-13 .

4. Gotes M, (1942). *Educahonal Psychology* 4th edihon . new york : Longman .

5. knights. R.N. and bakkar D.j, (1976). *The Neuropsychology of Learning Disorders Baltimore*: university press .